٧ ــ الدوق دى لاروشفو-كو

للدكتور حسن صادق

إننا نعجب باحتقار حطام الدنيا والزهد فيها ، ونعــد ذلك فضيلة ، ولــكن لاروشفوكو يقول عنها : « احتقار الثروة كان عند الفلاسفة رغبة مستترة فى الانتقام لجدارتهم من الحظ ، باحتقار النعم التى حرمهم منها ، يدفعون به عن أنفسهم ذل الفقر ، كان سبيلاً ملتوية يسلكونها لاكتساب الاعتبار الذى حرمتهم منه رقة العيش » (موعظة رقم ٥٤) . ومعنى قوله أن بعض الناس يزهدون فى الثروة انتقاماً لجدارتهم من الحظ ، وهذا كبرياء . وبعضهم يتخذون هذا الزهد سلاحاً يدفعون به عن أنفسهم ذل الفقر ، وهذا خداع . وبعضهم يتخذونه مجازاً الى الاعتبار ، وهذا طموح ؛ أى أن لاروشفوكو يجعل مصدر هذه العاطفة الراقيــة الكبرياء والخداع والطموح .

الاعتــدال فضيلة جميلة ، ولــكن لاروشفوكو يقول عنها : « الاعتدال هو خوف الوقوع فى جحيم الحسد واتقاء الازدراء الذى يستحقه من تثمله السعادة ، إنه تفاخر جذيب بقوة العقل ، وعلى الجملة اعتدال الناس فى أرقى درجات علوهم هو الرغبة فى الظهور أكبر من حقيقة مركزهم وثروتهم » (موعظة رقم ١٨) « الاعتدال لا يستطيع أن يتطلع الى مناجزة الطموح وإخضاعه ، لأنهما لا يجتمعان مطلقاً . هو فتور النفس وكسلها ، كما أن الطموح نشاطها وتوقدها » (موعظة رقم ٢٩٣) . « عُد الاعتدال فضيلة ليخفف من غلواء الطموح الذى يتملك العظماء ، وليتعزى به صغار الناس عن ضآلة ثروتهم وجدارتهم » (موعظــــة رقم ٣٠٨) . فالخوف والغرور والكبرياء والكسل هى جوهر فضيلة الاعتدال . وهذه الفكرة برهان آخر على أن لاروشفوكو استخلص مواعظه من عصره ، لأنها تنطبق على خلق مازاران . كان هــذا الوزير يتكلف البشر اذا اختلت مصالحه ليظهر للناس أن المحن لا تروعه ، ويتصنع الرزانة اذا كلل النجاح أعماله ، ليظهر أن الرفاهية لا تستخفه طربا . ولــكن اعتداله الكاذب لم يخف على أحد من معاصريه . أما (فوكيون)[1] الاغريقى ــ مثلاً ــ فقد اشتهر بالاعتدال التقى وشهد له به أهل أثينا وأيدت حياته شهادتهم . ولما حكم عليــه بشرب السم قال لابنه والكأس فى يده : « آمرك وأرجو منك ألا تحمل للأثينيين فى صدرك غلا أو ضغينة من أجل موتى » .

جلد الحكماء يستدر إعجابنا ، ولــكنه فى اعتقاد لاروشفوكو « ليس إلا فن كتمان اضطرابهم فى دخيلتهم » (موعظة رقم ٢٠) ، أى أن الحكمة ليست شيئاً آخر غير النفاق . ولو قيد لاروشفوكو هذه الفكرة قليلاً ولم يضعها فى صيغة عامة لكان أصح . إذ يروى التاريخ أخبار حكماء كان الجلد عندهم غراما بالفضيلة لا ينال منه

(١) ٤٠٠ — ٣١٧ ق . م ، ولد فى أثينا وشب على الفضائل حتى أصبح مثالاً لها ، ونبغ فى الخطابة وفى فنون الحرب والسياسة . واكتسب بأعماله وملكاته وفضائله احترام قومه وتقديرهم ، وأقامه المظاميون فى أثينا رئيساً عليهم وهو فى شرخ صباه . وكان ينصح للشعب فى إخلاص تام ويجهر له بما يعتقد فى صراحة الواثق بصفاء نيته . وكان ديموستين الخطيب المعروف يرهب جانبه ويسميه (هادم خطبى) . وفى أواخر أعوامه جر عليه الاعتدال فى السياسة غضب الشعب ، فحكم عليه بشرب السم . ومات وهو يوصى ولده بأن ينسى ظلم الأثينيين له . ثم عرف الشعب قدره بعد موته فأقام له تمثالا

للأفكار) Histoir naturelle des esprits . وذلك أن بين (أفكار) الكتاب نواحى من التشابه وأخرى من الاختلاف ، فواجب النقد أن يفتش عن هذه النواحى حتى يعثر عليها ويميزها ويبين من خلالها خصائص كل كاتب وأوجه التشابه والاختلاف فى الأفكار بينه وبين غيره من الكتاب الذين يكونون معه أسرة فكرية واحدة . وقد لجأ سانت بوف لتحقيق ذلك الى طريقة الطبيعيين Naturalistes باستخدام ما يسمى Morographie أى ترجمة حياة الكاتب تحت ضوء الملاحظة الصادقة والتحليل الدقيق وذلك للوصول الى أغوار فكره ، واكتشاف (الفروق العظيمة الطبيعية) — كما يقول سانت بوف — بين العقول المختلفة .

ولقد تضمنت مجموعتاه الخالدتان Causeries du lundi و Nouveaux lundis هذه التراجم الفكرية الفائقة التى تعتبر بما احتوته من الأفكار الغزيرة ، والذوق السليم ، خير نموذج لفن النقد الحديث .

علي كامل

خوف أو أمل . ولنضرب مثلاً : سقراط الحكيم الذى جلس فى سجنه قبيل إنفاذ حكم الموت فيه يحدث أصحابه عن موضوعات فلسفية هامة ، وهو أشد ما يكون هدوءاً واطمئناناً (راجع فيدون لأفلاطون) . وكيف نعرف أن الهدوء الظاهر يخفى اضطراباً باطنياً ؟ إنه فى هذه الحالة ينم عن نفسه مهما حاول المضطرب إخفاءه . ومثل هذا الانسان لا يسمى حكيما . وإذا لم يبد لنا أثر من آثار الاضطراب ، فليس من حقنا الجزم بوجوده .

وماذا يقول لاروشفوكو عن فضيلة العدل ؟ « حب العدل ليس عند كثرة الناس إلا الخوف من وقوع ظلم عليهم » (موعظة رقم ٧٨) . وهو لم يميز العدل الذى يصدر عن إلهام نفسانى وما يسمى صرخة الضمير وينتج الأعمال الكريمة ، من العدل الذى يصدر عن التفكير والروية وينتج القانون الذى يمنع أعمال الظلم من الوقوع .

ثم يقول عن الطيبة : « الانسان العاجز عن أن يكون شريرا ، لا تستحق طيبته المديح ، والطيبة فى هذه الحالة — أى حالة العجز عن فعل الشر — ليست فى الأغلب إلا خمولاً أو ضعف إرادة » (موعظة رقم ٢٣٧) . وهذه الفكرة تقد لخلق الملكة آن دوتريش

ونذكر عقب الطيبة قوله عن الفضيلة التى تمت اليها بصلة كبيرة ، وهى الشفقة : « الشفقة فى الأغلب شعور بآلامنا فى آلام الغير . إنها تبصر ما هو فى عواقب المحن التى قد تصيبنا . إننا تقدم المونة للغير لنضمن معونته فى ظروف مماثلة لظروفه . وهذه الخدمات التى نسديها اليه هى فى الواقع معروف نسديه الى أنفسنا مقدماً » (موعظة رقم ٢٦٤) . وهذه الفكرة لا تدعو الى العجب بعد الذى ذكره عن الشفقة فى معرض حديثه عن نفسه . وقوله « فى الأغلب » يدل على إيمانه بوجود الشفقة النقية التى تنفجر من القلب وتسبق كل تفكير وتأمل ، وتنتج الخير من تلقاء نفسها ، وفى بعض الأحايين على الرغم مما تتطلبه المصلحة الذاتية . وهذه العاطفة ألزم ما يكون للانسانية لأنها بلسم البائسين ، تربط القوى بالضعيف ، والمجدود بالمحدود ، ولن يصيبها العفاء مادام على الأرض بشر .

وتأتى عقب الشفقة فضيلة الشكر على المعروف ، فيقول عنها : « شكر الكثرة من الناس ليس إلا رغبة خفية فى الحصول على معروف أكبر من الذى حصلوا عليه » (موعظة رقم ٢٩٨) .

ومن الطيبة والشفقة المتبادلة والشكر تنتج الصداقة : « إننا لا نستطيع أن نحب شيئاً لا تربطنا به آصرة ، ولا نتبع غير ذوقنا ولذتنا لما نفضل أصدقاءنا على أنفسنا . وهذا التفضيل فقط هو الذى يجعل الصداقة حقة كاملة » (موعظة رقم ٨١) ، أى أننا ننسى مصلحتنا الذاتية فى سبيل أصدقائنا ونجد فى هذا النسيان لذة . وهو يذكر هذه الكلمة للحط من قيمة هذه العاطفة ، ولكنها لذة فيها نبل وبطولة .

ولم يلبث أن أنكر وجود الصداقة التى توهب ولا تباع ، فقال : « الصلح مع أعدائنا ليس إلا رغبة فى إصلاح حالنا ، والملل الناشىء من عناء الحرب ، والخوف من وقوع حادث سيئ » (موعظة رقم ٨٢) . وهذه الفكرة مأتاها الحرب الأهلية التى سبق الكلام عنها . فان لاروشفوكو الذى دفعته مصلحته الذاتية الى الاشتراك فى هذه الحرب ، رغب فى الصلح بعد أن جرح رأسه وهلك زرعه ودمر قصره ، خشية أن تصيبه ملمات أخرى . وكانت الملكة آن دوتريش أثناء هذه الحرب لا تثق بمن يلتفون حولها لأنها لم ترض طموحهم ، وتوجس منهم خيفة كما يدل على ذلك قولها : « متمناى أن يبقى الليل فى مجثمه أبداً لأنى لا أرى فى النهار إلا أناساً يدأبون على خيانتى » . فالبلاط والثائرون لم يلجأوا الى الصلح إلا فراراً من الملل الناشىء من عناء الحرب ، وخوفاً من وقوع حوادث أليمة ، ورغبة فى إصلاح حالهم » . ثم قال فى موضع آخر : « إن ما يسميه الناس صداقة ليست إلا شركة ، أو إدارة وتدبير مصالح ذاتية متبادلة ، أو تبادل ضروب المعروف . وهى على الجملة ليست إلا تجارة يتطلع حب الذات فيها دائماً الى شىء يربحه » (موعظة رقم ٨٣) . « إننا نقنع أنفسنا فى أكثر الأحايين بأننا نحب من هم أكثر منا قوة وأشد بأساً . وفى الحق إن المنفعة هى فقط التى تنتج صداقتنا ؛ ونمنحهم هذه الصداقة ابتغاء خير نروم الحصول عليه منهم ، لا فى سبيل خير نريد أن نهديه اليهم » (موعظة رقم ٨٥) .

تتمة البحث فى العدد القادم

صبحى صابوبه